مجلة دفاتر المتوسط
ISSN:23535-035
EISNN:2661 -7439

المجلد :07، العـدد:01 (جوان 2023)، ص 08- 25

الاستدامة من خلال المنظور الإسلامي للتنمية

La durabilité d'un point de vue islamique sur le développement

سلوى بن جديد
Salloua Bendjedid

جامعة باجي مختار – عنابة (الجزائر)، sa2loua@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/06/06 تاريخ القبول: 2023/04/17 تاريخ النشر: 2023/06/05

ملخص:

تتضمن التنمية من منظور إسلامي مفهوما أوسع وأعمق للاستدامة، قابلا للتطبيق، يُشكل البحث فيه هدفا لهذا المقال. غير أن المشكلة لا تكمن فيما قد يرتبط بالمتغيرات المذكورة، إنما في قوى النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي التي تسعى بكل ما لديها من قوة ونفوذ إلى تعميم أنماط ونظم وقيم الرأسمالية الليبرالية على كل بلدان العالم بما فيها البلدان المسلمة، أي تكريس على مستوى عالمي لنمط تنموي واحد.

وفوق كل هذا، نمط لا يتوافق وأبعاد الاستدامة من حيث أنه لا يُؤمن إلا بالحدود القصوى في الإنتاج والاستهلاك، حدود تستنزف خيرات الأرض وتغالط حقيقة غايات الوجود الإنساني، في حين التنمية من منظور إسلامي لا تكون إلا مستدامة.. ولا مجال لأن تكون خلاف ذلك، وهي النتيجة التي يُؤكدها البحث.

كلمات مفتاحية: المنظور الاسلامي للتنمية، التنمية المستدامة، أيديولوجيا الاستهلاك.

Abstract:

le développement dans une perspective purement islamique propose une conception globale et approfondie de la durabilité qui trouve ais aiment sa place dans la pratique. Le problème, néanmoins, n'est pas lié à cet aspect des choses, mais au pouvoir de l'ordre économique capitaliste mondial qui œuvre avec force pour généraliser les modèles , les systèmes et les valeurs du capitalisme libéral à tous les pays du monde, y compris les pays musulmans.

Il devient nécessaire , si non impératif , en vue des difficultés rencontrées pour l'application efficace d'une politique globale et mondiale dans ce domaine, de valoriser le concept islamique de la durabilité dans le développement dans une démarche de présentation, de sensibilisation à des valeurs qui œuvreront pour le bien de l'humanité.

Keywords: Perspective islamique sur le développement ; Développement durable; Idéologie de la consommation.

المؤلف المرسل: أ.د/سلوى بن جديد، الإيميل: sa2loua@yahoo.fr

1. مقدمة:

إن النمط الرأسمال الليبرالي في النمو الاقتصادي يقوم على التصنيع المفرط المسبب للغازات الاحتباسية المضرة بالمناخ والبيئة، تصنيع مخصص في نسبته الكبيرة للصناعات الحربية مع ما تتطلبه من حروب ونزاعات كأسواق لبيع الأسلحة والدمار، ومن ميزانيات ضخمة على حساب المشاريع السلمية المفيدة لعامة الناس والمحققة لسعادتهم وغير المضرة بمجالهم الحيوي .

وإلى حين اقتناع قوى النمو الاقتصادي الرأسمالي الليبرالي بضرورة التعامل بمعايير ومقاييس الاستدامة البيئية في نشاطات الإنسان، بما يترتب عن ذلك من تغييرات جذرية في أنماط الإنتاج والاستهلاك، ستجد البشرية نفسها حينئذ قد ضيعت على نفسها فرصا كثيرة وهامة في مجال الاستدامة وحفظ حقوق أجيالها في حياة كريمة متوازنة.

أهداف الدراسة: مع كل الصعوبات والتحديات أمام تطبيق إدارة بيئية فعالة، وبأسلوب آخر تطبيق فعال لسياسات عامة وطنية وعالمية في مجال الاستدامة البيئية والاقتصادية، يبقى تثمين مفهوم الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي ضرورة أكثر من ملحة، في إطار: التعريف فالتحسيس فالتفعيل لقيم وأفكار ومبادئ هي لخير البشرية جمعاء.

و**السؤال المركزي** الذي يُطرح في هذا السياق، هو التالي: إلى أي مدى يمكن أن ترد الإستدامة في التنمية من منظور إسلامي على المشكلات البيئية الراهنة؟

وتطرح **فرضية البحث** للاجابة على السؤال المركزي، الفكرة التالية: التنمية من منظور إسلامي لا تكون إلا مستدامة في كل مجالاتها وبكل أبعادها، ولا مجال لأن تكون خلاف ذلك.

وسنحاول اختبار الفرضية من خلال المحورين التاليين:

- النصوص والأحاديث المكرسة للاستدامة في التنمية من منظور إسلامي
- أبعاد ومستلزمات الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي

2. النصوص والأحاديث المكرسة للاستدامة في التنمية من منظور إسلامي

ضمن هذا المحور نعرض في مقام أول لمرتكزات التنمية من منظور اسلامي في مختلف المجالات: الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، مرتكزات تتكرس معها الاستدامة البيئية بكل أبعادها، لأنها تنمية تتحق في حدود وسطى لا تضر بالبيئة الطبيعة، ثم نتطرق في المقام الثاني إلى أهم النصوص المكرسة للاستدامة البيئية والاقتصادية في القرآن والسنة النبوية وفي الأثر، وهو الخبر المنقول عن الصحابة والتابعين.

1. مرتكزات التنمية من منظور اسلامي

في الاقتصاد الإسلامي وانطلاقا من المصادر الأساسية للإسلام (القرآن والسنة والاجتهاد) هناك نهى بشدة عن الاكتناز الذي هو الادخار من أجل الادخار، وحث على الاستثمار، أي تشجيع الادخار من أجل الاستثمار، حيث الدلائل على ضرورة الاستثمار كثيرة في القرآن والسنة.

الاقتصاد من منظور إسلامي يُحرم فيه الاحتكار ويُبغض الاستغلال، وتُفرض الزكاة على تراكم نصاب معين من الثروة *"في أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم"* (سورة المعراج، الآية24)، ويُطلب ترك المحرمات والمكروهات شرعا، فلا تجارة في المحرمات ولا تجارة بالطرق المحرمة، فالنشاط الاقتصادي من منظور اسلامي لا ينبغي أن يقوم على مبدأ "أتركه يعمل، أتركه يمر" الذي جاء به آدم سميث شعارا للرأسمالية، إن النشاط الاقتصادي من منظور اسلامي مقيد بكل ما يفيد صالح الفرد والصالح العام وسلامة وأمن الفرد والمجتمع بالمفهوم الواسع للأمن، وكذا سلامة البيئة وتوازن نظمها.

الاقتصاد الإسلامي يشجع الملكية الفردية ويحميها في نطاق مبادئه، كما يحمي الصالح العام، ويحرم الربا بكل صوره، حيث جاء في القرآن الكريم *"وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا"* (سورة البقرة، الآية 275)، و*"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً "* (سورة آل عمران، الآية 130)، وأيضا *" وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ"* (سورة النساء، الآية 161).

وإلى جانب ما سبق، تُضاف مبادئ أخرى في مجالي التنمية السياسية من مثل مبدأ الشورى والمشاركة *"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"* (سورة الشورى، الآية 38)، وتحريم الظلم *"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا"* (سورة النساء، الآية 10)، ومن شأن هذه المبادئ إرساء نظام يوسع من دائرة صنع القرار السياسي بما فيه القرار المتعلق بالتنمية المحلية، ويعمل على ترشيده في مختلف مجالات النشاط البشري الذي تشكل البيئة الطبيعة مجاله الحيوي.

هذه هي الركائز الأساسية لاقتصاد إسلامي، وما عدا ذلك فعلى المسلمين أن يضطلعوا في كل عصر وجيل بما يلائمهم من خطط اقتصادية، أي تُرِك الباب مفتوحا للاجتهاد في حدود المبادئ الأساسية التي وضعها الشرع، وهذا يفسح المجال لأن يتميز الاقتصاد من منظور اسلامي بشيء من المرونة.. والتقدمية.. والديناميكية.. وبأن يسمح مناخه بالابتكار والتجديد، وبأن يمنح قدرة كبيرة على التكيف مع الأوضاع والظروف المختلفة.

2.2 الاستدامة من خلال القرآن والسنة النبوية والأثر:

قبل الحديث عن الاستدامة في المصادر الرئيسية للإسلام نقدم أولا تعريفا للتنمية المستدامة وارد في تقرير بروندتلاند وندوة ريو دي جنيرو العالمية: "إنها التنمية التي تلبي احتياجات الحاضر مع عدم النيل من قدرة الأجيال القادمة على إشباع احتياجاتها.. كما أنها التنمية القائمة على تشجيع أنماط إنتاج واستهلاك ضمن حدود وإمكانيات البيئة، وبما يحقق التوازن بين الأهداف البيئية والاقتصادية في العملية التنموية" (Rapport Brundtland des Nations Unis, 1987. Michat Anne Sophie, 2007 p.94. ، الندوة العالمية للأمم المتحدة حول البيئة، 1992).

وإذا جئنا إلى الاستدامة في القرآن نجد أن هناك آيات كثيرة تعالج مسائل ذات أبعاد إيكولوجية، منها الآية 60 من سورة البقرة *"كلوا واشربوا من رّزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"*. وهكذا فالفساد من منظور إسلامي يتعلق أيضا بسوء إدارة الشؤون والعمليات التي ترتبط بالبيئة وخيرات الأرض وليس بالمعاملة والعلاقات فيما بين الناس فقط.

التنمية من منظور اسلامي لا تسامح فيها مع التبذير والإسراف والتكديس المفرط للمنتجات والاستهلاك الفائض (la sur consommation)، وهذا ما نعثر عليه أيضا في أدبيات التنمية المستدامة ومقاربة الإدارة البيئية (بن جديد سلوى، 2016، ص.206-207، 214) ، جاء في القرآن الكريم " *وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ*" (سورة الأنعام، الآية 141)، وأيضا "*يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ*" (سورة الأعراف، الآية 31).

وتحبذ التنمية من منظور اسلامي الاعتدال والوسطية في الأمور "*وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا* (سورة الفرقان، الآية 67)، وجاء في القرآن أيضا " *وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا* " (سورة الإسراء، الآية 29).

ومن الوسطية والاعتدال المطلوبين من منظور اسلامي يُستشف مستوى التكنولوجيا المطلوب أيضا من منظور إسلامي، هذا الموضوع الذي تطرحه أدبيات التنمية المستدامة وترى أنه ينبغي "التحول إلى تكنولوجيات أنظف وأكفأ، تتسبب في نفايات وملوثات أقل.. وفي بعض الحالات ينبغي الاحتفاظ أو العودة إلى التكنولوجيات التقليدية لأنها تفي بهذه المعايير" (www.anajahdimocraty.org).

وفي مصادر الدين الإسلامي يجري الحديث عن بيئة مستدامة، كما يجري الحديث عن تنمية مستدامة للجميع. وتؤكد هذه المصادر على الأهمية الخاصة لعنصر الماء في استدامة البيئة والتنمية "*وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ*" (سورة الأنبياء، الآية 30).

كما جاء في القرآن أن الله خلق كل شيء في الكون بقدر وبنسب محسوبة كميا وكيفيا (www.green-muslim-peace.over-blog.com, 30 aout 2010)، "*إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر*"

(سورة القمر، الآية 49) ، و*"وكلّ شيء عنده بمقدار"* (سورة الرعد، الآية 8)، ما يعني أن الكون يعد نظام شامل بأنظمة فرعية لا تتحمل الإخلال بها، أنظمة تتكامل بما يحقق التوازن الكلي فيه، حيث أن الاستثمار عند تجاوز سقف معين يمكن أن يتحول إلى استدمار.

وإذا تأملنا في الكون نجد تنوع كبير في شكل عناصره ووظائف نظمه بما يرد على حاجات الإنسان المتنوعة التي تضمن له البقاء والرفاه (Le bien-être)، واستمرار حياة الكائنات الحية بصفة عامة.

وهناك آيات كثيرة في القرآن وأحاديث نبوية تحث جميعها على العمل والكسب، وقد جاء في سورة طه: *"الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السّماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نّبات شتّى . كلوا وارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لّأولى النّهى"* (الآيتين 53 و54). وجاء في الحديث النبوي *"لأن يأخذ أحدثكم أحبُلهُ ثم يأتي الجبل، فيأتي بحُزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجههُ، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه"* (صحيح البخاري).

فالعمل على مستويات ومجالات عديدة مطلوب شرعا من أجل استدامة القوت والأمن للأفراد والجماعات، ليس الأمن الغذائي والأمن البيئي فقط، وإنما الأمن الروحي والأمن النفسي أيضا.

والملاحظ أن كل أنواع الأمن تتكامل من منظور إســـــلامي ولا تتنافر ولا تتعارض، فالأمن النفســـــي والروحي يدعمان الأمن الغذائي ويعدلان المزاج، وبذلك يدعمان الأمن البيئي في النهاية. ويُذكر في هذا المضمار وبالتحديد فيما يتعلق بنظام الأكل حديث نبوي جاء فيه: "*ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ حسْبُ الآدميِّ لقيماتٌ يُقِمنَ صلبَهُ فإن غلبتِ الآدميَّ نفسُهُ فثُلُثٌ للطَّعامِ وثلثٌ للشَّرابِ وثلثٌ للنَّفَسِ"* (صحيح ابن ماجه).

وفي هذا الســـياق يقرن ابن خلدون البذخ بالانحلال حيث يقول: "إن المجتمع يمر بمرحلة التقشف ثم تليها مرحلة الاعتدال ثم مرحلة الترف ثم يصل إلى البذخ وحينئذ يصل إلى الانحلال" (خضير ادريس، 1983، ص 94).

والحديث النبوي سبق أدبيات التنمية المستدامة في التفكير بحق أجيال المستقبل في العيش الكريم من خيرات الأرض والتمتع ببيئة خضراء: *"إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة* (شتلة) *فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر"* (الألباني محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة). وجاء في الأثر " *غرسوا فأكلنا نغرس فيأكلوا"*.

كما سبق الحديث النبوي أدبيات التنمية المستدامة فيما يتعلق بالرفق بالحيوان حيث جاء في حديث البخاري ومسلم *"عُذِّبت امرأة في هِرَّة حبَسَتْها، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"*. وفِي حديث رواه مسلم *"ما مِن مُسلم يَغْرِس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"*. وفي حديث آخر *"إنَّ الله كَتَبَ الإحسانَ علي كل شيء، فإذا قَتَلْتُم فأحْسِنُوا القِتْلَة، وإذا ذَبَحْتُم فأحْسِنُوا الذِّبْحَة، ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَه"*. (صحيح مسلم).

3. أبعاد ومستلزمات الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي

على ضوء ما جاء في الفقرات السابقة، نحاول ضمن هذا المحور تحديد مواصفات التنمية من منظور إسلامي ثم استخلاص مدى اتساع وعمق الاستدامة في التنمية من منظور اسلامي.

1.3 مواصفات التنمية من منظور إسلامي

التنمية من منظور اســـلامي عندما تهتم باعتدال ووســـطية بكل أبعاد الانســـان وبمجالات تحركه ونشاطه، انما تكون قد جمعت في ذاتها أبعادا كثيرة، فهي:

- **تنمية مســـتدامة بيئيا:** حيث تهتم بالبيئة وتراعي توازناتها، وتحافظ على المجال الحيوي الذي ينشط فيه الانسان اقتصاديا. فالتنمية من منظور إسلامي لا تكون إلا مستدامة، ولا مجال لأن تكون خلاف ذلك. إنها فعلا تنمية خضراء صديقة للبيئة.

- **تنمية بشرية:** حيث تهتم بحل مشكلات الانسان، وسد الحاجات الأساسية للجماعات البشرية (les communautés) والمجموعات السكانية (Les populations). فما احتوته أدبيات التنمية البشـــرية من أبعاد للأمن (بن جديد ســـلوى، 2013، ص170)، نجده متضـمن في المنظور الاسـلامي للتنمية من خلال تركيزه على ضـرورة تأمين الغذاء وكل الحاجات الأسـاسـية المادية والمعنوية للإنسـان، وباختصـار على تحقيق أمنه بالمفهوم الواسع للأمن.

وفي هذا السـياق يرى مالك بن نبي أن تحقيق الأمن الغذائي يعتبر الغاية الأولى التي يجب أن يحققها النشاط الاقتصادي على رقعة جغرافية بقدر المغرب العربي (بن نبي مالك، بين الرشاد والتيه، ص. 145، 161، 165).

- **تنمية منبثقة من الداخل ومتمحورة حول الإنسـان:** التنمية من منظور إسـلامي هي تنمية تنبثق من الداخل.. وتتركز على الإنســـان (Développement endogène et centré sur l'homme) ، مبعثها تغير حال ما بالنفس المجتمعية، فيكون العمل عندئذ موجها نحو ترقية الفرد والمجتمع وقيمهما المعنوية والمادية.

وجاء نمط التنمية المنبثقة من الداخل والمتمحورة حول الإنسان في مقابل التنمية الواردة من الخارج، وتبلور من خلال دراسات خبراء اليونيسكو (UNESCO)، ويترجم هذا النمط مسار ترقية الإنسان بنفسه ولنفسه (par pour lui-même). إن هذا النمط يتضمن أيضا في مفهومه ترقية الثقافات الوطنية للبلدان والمجتمعات بطريقة تحفظ هوية الشعوب وتضمن أصالة تطورها، وإن حالة الانبثاق من الداخل (l'endogénéité) لا تخص مجال العلم والتكنولوجيا فحسب، ولكن أيضا وخاصة التنظيم الاجتماعي والعلاقات الإنسانية وأنماط الحياة. (Abdel-Malek Anouar , Cao Tri Huynh; p. 14, 15)

وفي إطار هذا النمط يؤكد الخبير الاقتصادي الاجتماعي المصري أنور عبد الملك أن حالة الانبثاق من الداخل ترتكز على فعالية مفهوم الخصوصية (spécificité)، فتعبئة الطاقات الداخلية والشعبية هي التي تعطي ميزة ومعنى للمشروع الحضاري (projet de civilisation). (IBID,p.181)

والتنمية المتمحورة حول الإنسان تميل إلى دمج وإلحاق عوامل عديدة ومعقدة من أجل الغاية نفسها: راحة الإنسان في مجمله. والتنمية بهذا تعد ظاهرة كاملة شاملة تدمج في الوقت نفسه العامل التكنولوجي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، وباختصار، تدمج كل جوانب الحياة في مجتمع معين. وعليه فإن هذا النمط من التنمية الذي يتقاطع في شق كبير منه مع نمط التنمية من منظور اسلامي يستدعي اعتماد مقاربة (approche) مندمجة وموحدة في التخطيط للتنمية، وحتى وسائل التحليل وأدواته التي بها تدرس الأوضاع وتوجه بها عمليات صنع القرارات، ينبغي أن تتميز بتعدد التخصصات (multidisciplinaires). (IBID,p.14)

إن تمحور التنمية حول الإنسان وانبثاقها من الداخل تعني باختصار تسخير كل الطاقات الوطنية وتعبئتها لتحسين واقع الأفراد والجماعات.

- **تنمية لرأس المال وتنمية تكاملية:** فهي استثمار بالطرق الحلال للرأسمال وتنمية وتزكية له. وهي تكاملية من حيث أن منطق التضامن والتكافل الإسلامي يستوجبها ويقتضيها، وهذا النمط من التنمية من منظور إسلامي يستدعي التخطيط له بالتنسيق على مستوى مجموعة من البلدان الإسلامية المتجاورة إقليميا بغرض تحقيق هدفين في الوقت نفسه، حيث أن "التنمية التكاملية" أو كما يصطلح عليها أيضا "التكامل الإنمائي" تكون من جهة أداة لترقية القيم والنهوض بالاقتصاد، ومن جهة أخرى أداة لتحقيق التكامل الإقليمي (الحمصي محمود ، 1984، ص.104، 108).

- **تنمية متوازنة وشـاملة:** متوازنة من حيث اهتمامها بكل قطاعات النشـاط البشـري ومجالات حياة الفرد والمجتمع: الثقافية، والسـياسـية، والاجتماعية، والاقتصـادية، والروحية، والنفسـية. وشـاملة من حيث تغطيتها لكل مناطق البلاد (Abdel-Malek Anouar , Cao Tri Huynh; p. 14)، وفي هذا السياق يَذكر محمد شوقي الفنجري أستاذ الاقتصاد الاسلامي في جامعة الأزهر أن التنمية من منظور اسلامي هي مسؤولية مشتركة بين الفرد والدولة، حيث يكمل كلاهما الآخر ولا يغني أحدهما عن الآخر في مسار التنمية الشاملة المتوازنة (العجلة علي محمد، 1989، ص 47).

وهكذا فالمنظور الإسـلامي للتنمية هو مقاربة تنموية متعددة الأبعاد، تتقاطع فيها أنماط عديدة للتنمية وتتكامل بتناغم فتعطي نمطا مميزا هو نمط "التنمية من منظور اسلامي"، نمط زاخر بصور من المساواة والعدالة والأمن للأفراد والجماعات.

وهكذا فمن شأن التنمية من منظور اسلامي وكما أشار إلى ذلك مالك بن نبي، أن تضمن لقمة العيش لكل فم على أساس مبادئ العدالة الاجتماعية وبفضل فريضة الزكاة، وأن تفرض العمل على كل ساعد على أساس ان العمل في الاسلام واجب وضرورة لاستمرار التفاعل بين الانتاج والاستهلاك تفاعلا إيجابيا، ومن هذا المنطلق يحق للتنمية من منظور اسلامي ان يُرفع لها شعار "كل فم يأكل وكل ساعد يعمل". (بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، ب.ت،ص.96).

ولتحقيق قوت الأفواه جميعا، يقترح مالك بن نبي منح العناية للري والفلاحة في مقام أول (بن نبي مالك، بين الرشاد والتيه، ص165). وهو ما تهتم به أيضا أدبيات التنمية المستدامة ومقاربة الإدارة البيئية التي تجعل من بناء السدود أولى الأولويات، وتركز على العناية بالتربة والغطاء النباتي والمصايد (بن جديد سلوى، 2016، ص.209-211).

وأكد مالك بن نبي انه يصعب "الانتقال الى المرحلة الصناعية دون تحقيق فائض في الانتاج الزراعي، غير انه اذا لم تكن البلاد فلاحية أصلا وتتوفر على ثروات طبيعية هامة يمكن ان يحدث العكس أي ان تستثمر مداخيل بيع ثرواتها الطبيعية تلك في

استصلاح الاراضي وتحويلها الى مساحات فلاحية هامة". (بن نبي مالك، بين الرشاد والتيه، ص. 33).

وطبعا لا ينبغي أن يُفهم من هذا، أن مالك بن نبي يتبنى المفهوم والأساليب الرأسمالية في التصنيع واستغلال الثروات الطبيعية المتنافية مع الاستدامة البيئية والاقتصادية، لا أبدا، مالك بن نبي يؤمن بالوسطية والاعتدال في الأمور، ويشجع الاستثمار الاجتماعي في التنمية عندما لا يكون هناك رأسمال مالي كاف للمشاريع التنموية، ويرى في هذا السياق أن من أهم شروط النهوض الاقتصادي المسألتين التاليتين:

1- ان يتبع البلد المسلم سياسة تتفق ووسائله.

2- ان يوجد بنفسه وسائل سياسته (بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص.90).

وهذا يعني ان يضع البلد النامي ويصوغ المسألة بمصطلحات البقاء الذي يفرض الاستغلال والتوظيف الكامل للموارد البشرية والمادية المتاحة، حتى يمكنه أن يصوغ المسألة بعد عقود من الزمن بمصطلحات القوة، ويتجنب الوقوع في مسألة المديونية التي تزيده تبعية وتحيل بين عمله من أجل التكامل الاقتصادي الإسلامي.

وبخصوص الجزائر وفي إطار ما تضمنته أدبيات التنمية المستدامة لاحقا من هدف يتعلق بتنظيم العمران وتوزيع السكان (بن جديد سلوى، 2016، ص.209) اقترح مالك بن نبي تغيير خريطة الاسكان في البلاد حيث كتب: "فالجزائر حاليا تعاني من تمركز فضيع للعباد بمدن أصبحت قاصرة عن توفير العمل والقوت لكل سكانها في حين تظل هناك مساحات شاسعة يمكن ان توفر العمل والقوت لسكانها ومن أجل هذا ينبغي تسهيل عمليات التعمير والاستيطان وإزالة الامور البيروقراطية في استغلال المساحات الفلاحية في الجنوب لتعميره مثلما تم تعمير غرب الولايات المتحدة الامريكية" (بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد،ص.97).

وفي مجال التنمية السياسية يسلم مالك بن نبي بالديمقراطية في الإسلام ويحدد مباشرة مواصفاتها حتى لا يترك مجالا للسؤال الذي مفاده: هل توجد ديمقراطية في الإسلام؟ والديمقراطية عنده هي "تقرير سلطة الإنسان في المجتمع.. هي مشروع تثقيف في نطاق أمة بكاملها وعلى منهج شامل يشمل الجانب النفسي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي.. حتى لا يترك انسان واحد يشعر بالعبودية لانسان آخر أو بالعبودية للفقر والجهل" (بن جديد سلوى، 2015، ص.17).

2.3 اتساع وعمق الاستدامة في التنمية من منظور اسلامي:

أعطت المراجع الأساسية في الإسلام بعد الاستدامة حقه في كل المجالات وليس فقط في المجالات الأربعة المعروفة في أدبيات نمط التنمية المستدامة المكرس له من قبل مؤسسات المجتمع الدولي، والمتمثلة في أبعاد وأهداف اقتصادية، وبشرية، وبيئية، وتكنولوجية (بن جديد سلوى، 2016، ص 206).

تلمس الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي في الحدود الوسطى لا القصوى للإنتاج والاستهلاك التي يكرس لها في المصادر الأساسية للإسلام (القرآن والسنة والاجتهاد). فعدم التبذير وعدم الاكتناز من اجل الاكتناز والزكاة على تراكم نصاب معين من الثروة ونبذ الربا وتحريمه ومحاربة الفساد والرشوة ونبذ الاحتكار وتشجيع الاستثمار، كلها آليات نحو الحدود الوسطى في الاستثمار لخيرات الأرض والطبيعة، بما يحقق توازناتها وعدم الاخلال بها، ونحو ترشيد الاستهلاك على مبدأ: "نستهلك لنعيش" وليس "نعيش لنستهلك"، كما هو شعار أيديولوجيا الاستهلاك (Quesnel Louis , 1967, p.36 - 37) في الثقافة الرأسمالية الليبرالية، وأن الإنسان هو محور مسارات التنمية وعملتها الصعبة، هو الوسيلة فيها والغاية لها، وليس تنمية الثروة والمال واحتكارها من قبل أقلية عالمية على حساب ملايير البشر.

وهكذا فمبادئ ومرتكزات اقتصـــاد اســـلامي تحقق الاســـتدامة في مجال التنمية الاقتصادية الاجتماعية ومنها الاستدامة للبيئة، لأن كل شيء في هذه التنمية عند الحدود الوسطى وبمقدار.. ووفقا للمنطق السليم لفلسفة الوجود.

فالاستدامة تفهم من خلال المصادر الأساسية للإسلام على أنها شاملة ومتوازنة، لا تستهدف الجوانب المادية فقط، بل والروحية والنفسية كذلك. وأن التنمية في الإسلام لا تكون إلا مســـتدامة بيئيا واقتصـــاديا، ولا مجال لأن تكون خلاف ذلك. ومن هنا يمكننا تقدير حجم الاهتمام الذي يأخذه بعد الاستدامة للبيئة وللتنمية من منظور اسلامي.

فعدالة التوزيع لفائدة كل أفراد المجتمع وضمان حد الكفاية للعيش الآمن التي يؤكد عليها القرآن والحديث النبوي إنما هي صورة من صور الاستدامة لحياة البشر وأمنهم. فكل أشكال النشاط الاقتصادي في ظل مبادئ الإسلام تكرس للاستدامة البيئية والاقتصادية. فوفرة الإنتاج مع سوء التوزيع هو حسب محمد شوقي الفنجري "احتكار لا يسلم به الإسلام، كما أن عدالة التوزيع دون إنتاج كاف هو تكريس للفقر، والبؤس يرفضه الإسلام" (العجلة علي محمد، ص 46). وأن هذه حالات وأوضاع تتعارض وأهداف وغايات الاستدامة أيضا.

ونلمس بعد الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي في تمحورها حول الإنسان نفسه وجعله غايتها، وعندما يكون الإنسان فعلا غاية للتنمية فإن ذلك يعني أنها تنمية تفكر في حماية مجاله الحيوي الذي يعيش فيه بوئام وتوازن. فالتنمية من منظور إسلامي ليست كنمط النمو الاقتصادي الرأسمالي تسعى إلى تحقيق أكبر قدر من الربح المادي وتقوم على الحدود القصوى في الانتاج والاستهلاك وعلى ليبرالية مطلقة محررة من كل القيود.. إن الإنسان في ظل تنمية بمنظور اسلامي "محرر مكرم يعمر الدنيا ويحييها بالعمل الصالح.. إن الإسلام نهى عن صرف المال في وجوه الترف والسفاهة حيث وصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين" (المرجع نفسه، ص 46 – 47).

إن النمط الرأسمالي حتى إذا اهتم بالأجير، فهو من باب إطفاء غضب العمال المتراكم على مالكي وسائل الإنتاج وليس رفقا بهؤلاء العمال، وكذا من أجل الحفاظ عليهم كقدرة إنتاجية وشرائية مفيدة للسوق.

إن اهتمام القرآن والسنة النبوية بالبيئة يمنح هذه الأخيرة بعناصرها ونظمها، شيئا من التوقير والتقديس في نظر المسلم وعلى درجة علمه وايمانه، مما يعمل على إيجاد إلزامية ذاتية لديه بضرورة حفظ البيئة وحمايتها، ويتأتى احترامه هذا للبيئة من قناعته بأن *"وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ"* (سورة الإسراء، الآية 44).

كما هناك بعد براغماتي أيضا في مفهوم الاستدامة في التنمية من منظور إسلامي بحيث تأتي حماية "الأرض" و"الطبيعة" باعتبارها مصادر عيش للإنسان.

الاستدامة من خلال مصادر الدين الإسلامي هي أولا للبيئة ثم للتنمية التي تتحق في هذه البيئة، وتسمح بإدامة العيش والبقاء والرفاه للجميع، لأن العكس سيعني الصراع مع البيئة والتحدي لها أي التدمير لها وليس العيش معها بصداقة وفي وئام، ومن ثمة ظهور الأزمات الاقتصادية المختلفة: أزمة كساد.. أزمة ندرة.. أزمة تضخم..

الإنسان في فلسفة الوجود الاسلامية ليس مالك الأرض وما فيها وعليها، إنما مسير فقط لخيراتها، ومستفيد منها، يعيش عليها، في صداقة مع الطبيعة وليس بمنطق الصراع معها والعداء والتحدي لها، كما هو الشأن في الثقافة التأنيسية (La culture humaniste) (Quesnel Louis ,p.36 - 37) التي هي تأنيسية علمانية (Humanisme laïc) ألهت الإنسان ومنها مصطلح "تأنيس" على صيغة "تأليه".

والواضح أن الاستفادة من تطبيقات الاستدامة من منظور اسلامي للتنمية لن يكون ممكنا الا عند التراجع عن النظام الاقتصادي الرأسمالي، وهذا لا يتم إلا في حالة انهيار هذا النظام. ثم هناك سؤال جوهري يُطرح في هذا السياق هو: هل باستطاعة نمط التنمية من منظور اسلامي مواجهة المشكلات البيئية الحالية، في حالة ما إذا توفرت فرصة

وامكانية تطبيقه؟ والجواب طبعا بالنفي، لأن أوضـــاع البيئة وصـــلت الى نقطة اللاعودة فيما يتعلق بالتضـــرر والتدهور الذي لحق بالبيئة، لكن يبقى هذا النمط هو الأفضـــل بالمقارنة مع جملة أنماط التنمية المكرسـة حاليا وتلك التي سـبق اعتمادها في الماضـي، وذلك بمعياري المعقولية والإمكانية اللذان تقاس بهما القرارات والسـياسـات. لأن أنصـار التنمية المسـتدامة في العالم مختلفون حول مسـتوى التكنولوجيا الذي يجب أن نعود إليه، ومنهم جماعات تريد العودة بالبشرية إلى الحياة البدائية وترفض التكنولوجيا جملة.

والمشكلات البيئية العالمية (Les crises écologiques mondiales) الحديثة التي تهدد الحياة على وجه الأرض والناتجة أساسا عن نشاطات الإنسان والتي يعتبر التغير المناخي أكثرها تسارعا في وتيرته، تتمثل خاصة فيما رتبه تقرير منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (l'OCDE) من مشكلات بيئية عالمية تستدعي معالجة سريعة (http://www.techno-science.net, 2015):

- ✓ الصيد المفرط (la surpêche)
- ✓ تدمير الغابات (la destruction des forêts)
- ✓ تراجع التنوع البيولوجي (le recul de la biodiversité)
- ✓ تغير المناخ (le changement climatique)
- ✓ المواد الكيميائية الموجودة في البيئة
- ✓ تلوث الهواء والماء (la pollution de l'air et des eaux)
- ✓ المستوى الذي بلغه النقل في الحاضر وما سيكون عليه المستقبل.

إن المشكلات البيئية المذكورة والتي تهدد حاليا الحياة على كوكب الأرض تضع البشرية أمام المصير المحتوم "أن لا تكون" إذا لم تكن هناك تغييرات جذرية تماما في أنماط الانتاج والاستهلاك السائدة حاليا.

خاتمة: يمكن في الأخير التأكيد على الاستنتاجات التالية التي تعطي في الوقت ذاته فكرة عما جاء في المقال:

- ✓ التنمية في الإسلام لا تكون إلا مستدامة في كل مجالاتها وبكل أبعادها، ولا مجال لأن تكون خلاف ذلك.
- ✓ ثم هي أيضا تنمية بشرية محورها الفرد والجماعات ورفاهيتهم وراحتهم وأمنهم بالمفهوم الواسع للأمن.
- ✓ كما أنها تنمية للرأسمال وتزكية له، وتنمية خضراء صديقة للبيئة، توفر فرصا للحياة بانسجام ووئام مع الطبيعة البشرية والجامدة وليس في تحد لها.
- ✓ المنظور الاسلامي للتنمية يبلور مفهوما للاستدامة أوسع وأعمق مما هو عليه في أدبيات التنمية المستدامة، ويقدم نمطا تنمويا يتميز بالاعتدال والوسطية، يمكن أن يكون إذا ما طبق بديلا أفضل من النمط الرأسمالي الذي أضر بالبيئة.
- ✓ الاستدامة عندما ترتبط بالدين توفر امكانية الالتزام بالسلوكات البيئية والقدرة على إعادة النظر في فلسفة الحياة ومبادئ الوجود والتراجع عن التبذير والإنتاج والاستهلاك الفائض.
- ✓ عندما تكون التنمية مراعية لمتطلبات التوازن في الأنظمة البيئية، فإنها لا تُخِل بهذا التوازن، فإن الغايات التنموية للإنسان تلتقي عندها مع الغايات البيئية.
- ✓ العلاقة بين متغيري "التنمية" و"البيئة" ترتسم من منظور اسلامي كما يلي: "بيئة ـ تنمية" وليس "تنمية ـ بيئة"، على اساس أولوية البيئة على التنمية للاعتبارات التي تمت الإشارة إليها سابقا.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم

- صحيح ابن ماجه
- الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة.
- العجلة، علي محمد، (سبتمبر 1989)، ماذا عن التنمية في المنهج الإسلامي؟ مجلة منار الإسلام (إماراتية)، العدد الثاني، السنة الخامسة عشرة، ص40 – 66.
- بن نبي، مالك، 1978، بين الرشاد والتيه، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق.
- بن نبي، مالك. (بدون تاريخ)، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الشروق، بيروت.
- بن نبي، مالك، 1981، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق.
- الحمصي، محمود (1984)، خطط التنمية العربية واتجاهاتها التكاملية والتنافرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة.
- بن جديد، سلوى، (2016)، التنمية المستدامة والإدارة البيئية، في: قراءة سياسية في مواضيع ومسائل راهنة، دروب للنشر والتوزيع، عمان (الأردن).
- خضير، ادريس، (1983)، التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- بن جديد، سلوى، (جويلية 2013)، من التدخل الإنساني إلى مسؤولية الحماية، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، العدد الخامس، ص157 – 180.
- بن جديد سلوى، (جانفي 2015)، الفرد والديمقراطية وسيلة للتنمية الشاملة من منظور مالك بن نبي، مجلة دفاتر المتوسط، العدد الثاني، ص10 – 22.
- الندوة العالمية للأمم المتحدة حول البيئة، (1992)، المبادئ (المبدأ الثالث)، ريو دي جنيرو.

- عبد السلام أديب أبعاد التنمية المستدامة، على الموقع الالكتروني www.anajahdimocraty.org

- Abdel-Malek, Anouar. Cao Tri, Huynh. Rosier,Bernard. Khôi, Lê Thank. Clé pour une stratégie nouvelle de développement ,Paris: Les Editions Ouvrières.

- Quesnel , Louis. (1967), Le Sens de l'histoire - essai de prospective politique, Editions Buchet – Chastel, Paris.

- Rapport Brundtland des Nations Unis, (1987), Définition du Développement durable.

- Michat Anne - Sophie, (31 mars au 6 avril 2007), Développement durable - Quant le consommateur a rendez – vous avec la terre, in, Marianne, n°519, p.94.

- http://www.techno-science.net/, (2015), Les crises écologiques mondiales.

www.green-muslim-peace.over-blog.com, (30 aout 2010), La protection de l'environnement en islam.
-